

## 59- السيرة الذاتية والإبداع: درمان هسه

## تجليات التعدد إلى التكامل (إليه.. ) (2)

رفض نجيب محفوظ أن يكتب سيرته الذاتية، وفي رأي أن هذا من أفضل ما استن من سنن. من الذى يستطيع، أو يجرؤ، أو يعرف ما هى "سيرته الذاتية"؟ لن أدخل في تفاصيل هذه القضية فقد تناولتها بقدر كاف في ثلاثية ترحالاتي [الترحال الأول: الناس والطريق، الترحال الثانى: الموت والحزن، الترحال الثالث: ذكر ما لا ينقال] كما ناقشتها في مقدمة نقدي لأصداء السيرة الذاتية لنجيب محفوظ، وبرغم أن الكثيرين اعتبروا ثلاثية "الترحالات" سيرة ذاتية لشخصي، إلا أنني فضلت أن أتعامل معها باعتبارها أقرب إلى أدب الرحلات، بما في ذلك ما أسميته "رحلات الداخل والخارج، وبالعكس.

لكنني أذهب إلى أقصى الطرف الآخر حين أعتبر أى مبدع حقيقى لا يكتب (يرصد/يسجل/يشكل) إلا نفسه، إذ لا بد أن نعثر على المبدع في أعماله دون استثناء، وقد بلغ بي الاقتناع بهذا الفرض مؤخرًا أن جعلته يشمل كل أنواع الإبداع بما في ذلك الإبداع العلمى. هل يمكن أن يعنى ذلك أننا يمكن أن نتعرف على شخص أينشتاين في نظريته النسبية؟ إجابتى (أرجو لا تندم) أن "نعم" يمكن (تصوّر!)، هذه قضية تحتاج إلى عشرات بل مئات الصفحات لشرح بعض مداخلها، فلنؤجلها.

تأكد لي هذا الاحتمال الغريب (أن الكاتب المبدع لا يكتب إلا نفسه) أكثر وأنا أقرأ الأعمال الثلاثة التي أشرت إليها أمس لهрман هسه: "أيام من حياتي" (ترجمة أحمد عمر هاشم طبعة 1999 الناشر دار سندباد للنشر والتوزيع)، ثم "دميان" (ترجمة عبده الرئيس، الناشر الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة آفاق عالمية) ثم "سد هارتا" (ترجمة جيزلا فالور حجار، الناشر دارالمدى للثقافة والنشر)، قرأت هذه الأعمال مضطراً/ معاً في الظروف التي ذكرتها أمس، وحضرتي عدة فروض تتعلق بهذا الشأن، وأولها ما ذكرته حالا من: أن إبداع المبدع الحقيقى لا يمكن أن يخلو من سيرته الذاتية على مستوى ماء، وهذا شديد الارتباط بما أسميته "الواقع الإبداعى"، وبالنسبة لهيرمان هسه، فإنني تصورت أنه يمكن من خلال قراءة من هو هو، وإلى أين، أن تحقق جانباً هاماً مما يشغلني بشأن

طبيعة النفس البشرية ومسارها، من حيث البدء به: **تعدد مستويات الوعي** (الذوات داخِلنا وخارجنا) **في سعيها الدائب نحو التكامل الممتد**، والذي تسمى بأسماء مختلفة، لعل ما نبدأ به هنا هو اسم "**التفرد**" Individuation الذي استعمله كارل يونج، خاصة وأن هرمان هسه الذي غامر بأن يدخل خيرة التحليل النفسي شخصياً، وقد تم له ذلك من منطلق مدرسة كارل يونج المسماة بعلم النفس التحليلي analytic psychology. وليس التحليل النفسي psychoanalysis ليس المهم - في هذه المرحلة من التقدم- أن نناقش إلى أي مدى تأثر هرمان هسه بما خبره شخصياً أثناء التحليل، فاقنع به، أو عاشه (لا يمكن الجزم) فنضج في إنتاجه. ليس هذا هو المهم الآن (وسوف نعود إليه في **دميان**، وإلى درجة أقل في **سيدهارتا**)، المهم هو أن هسه نفسه قد عاش بذاته، وفي إبداعه، بما يدعم **فرض التعدد للنمو**، بما حفز أن أعيد تقديم هذا الفرض من خلال الجمع بين بعض سيرته الذاتية (أيام من حياتي)، وهذين العاملين الهامين، في هذه الأطروحة.

### تعريف موجز جدا

• ولد هرمان هسه في 2 يوليو سنة 1877 وهو يصف ذلك بقوله " في يوم حار من أيام شهر يوليو 1877، ثم يضيف "... وحرارة تلك الساعة التي ولدت فيها، هي التي أحببتها بلا وعي"، ثم يفسر بذلك تفضيله للجو الحار وحنينه المتصل إلى الجنوب (الهند خاصة).

• يُصنف هسه على أنه شاعر، وروائي، (ورسام تشكيلي أحيانا)

• حصل على جائزة نوبل في الآداب سنة 1946

• هرب - طفلا - من التعليم العام

• ظل رافضا (ثائرا/محتجا/منسحبا/مبدعا) للواقع الخامد، والسلطات المغتربة.

• تزوج ثلاث مرات وأنجب ثلاثة أولاد من زوجته الأولى.

• مرض ابنه الأصغر مرضا شديدا ظهر في أعماله.

• مرضت زوجته مرضا عقليا ودخلت مستشفى أمراض عقلية ، وماتت

• كانت له مواقفه، ومشاركته ، وإسهاماته في مجريات عصره، وخاصة بالنسبة للحرب العالمية الأولى وما حولها

• ذاع صيته وانتشرت أعماله وترجمت إلى 54 لغة (على الأقل) حتى الآن

• بقية المعلومات وقائمة بأعماله يمكن الحصول عليها من أي موقع أو موسوعة

### عودة إلى مسألة السيرة الذاتية والإبداع

ليست المسألة أننا بصدد دراسة مبدع بهذا الحجم لنصنف له، أو لنعريه، أو لنشخصه!، لكن الهدف من هذه الأطروحة

التي قد تمت مناقشتها لأسابيع أن نتعلم من مبدع بهذا الصق، وهذا الحدس، نتعلم منه ما هو السحر، وما هو الشعر، نتعلم ما هي الطفولة وما هو النمو، نتعلم ما هو الخيال الأوقع من الواقع ، وما هو الواقع الأكثر زيفا من أى حقيقة، نتعلم كيف تتجلى نفس الطاقة الفطرية بكل حركيتها النابضة التشكيلية في إبداع فائق، وكيف تصدم فتتأثر أو تشتت، ثم تتجمع ، نتعلم كيف ينحرف المسار بتلك الطاقة حتى يصل الأمر إلى جريمة لا يمكن تصورها -إلا خيالا- من مثل هذا الإنسان الصادق الرائع الجميل، وكيف يتقبل هو كل ذلك ولا يكف عن إبداعه وعطائه طول الوقت.

لا أطمع في أن أعطي كل هذه المناطق بما تستحق، كما لن أطبع هاجسا يغريني بالاختزال أو التقريب، فلنتفق على المنهج إزاء هذه المغامرة.

ابتداء سوف أقدم فرض (أو فروض الدراسة) بشكل عام (قابل للتعديل والتطوير لاحقا)

- سوف أقصر بحثي (في المرحلة الحالية) على هذه الأعمال الثلاثة السالفة الذكر
- أنصح الزائر (القارئ) الذى سوف يتابعنا أن يقرأ الأعمال الثلاثة بنفسه لنفسه بطريقته، (حتى قبل استكمال النقد) ، وان يصل إليه ما يصله بطريقته أيضا
- أرجو من المتابع أن يتحمل عدم الانتظام في النشر خوفا من التشويه أو التعسف (لو أرغمت نفسى على الانتظام جدا)
- أرجو أيضا من المتابع أن يعود إلى الحلقات السابقة، وهو يتلقى الحلقة الجديدة ما أمكن ذلك، ويا حبذا لو طبعها أولا بأول.
- آمل أن ينبهنا من يشاء إلى ما نخطئ فيه، أو نتجاوزه، (كلما عن له ذلك)
- أعلم أنها مغامرة أن يُكُتَب عمل نقدي بهذا الحجم (لا أعرف حجمه تحديدا الآن) بهذه الصورة المتقطعة، لكننى، وبمنتهى الصراحة، ورُطت - كالعادة - نفسى حتى أنجزه، ولعلنى أتبع نفس النهج في معظم الأعمال النقدية التي لم أتمها أو أنشرها بعد، وإن كنت على يقين أنه بعد نشر هذه الحلقات، سوف يحتاج الأمر إلى إعادة كتابة، وإعادة تحرير، قبل أن يصدر العمل مكتملا.
- وسوف نكون معا غالبا (إن كان في العمر بقية)

### تحذير

أرجو من المختصين فيما هو نفس، وبالذات الطب النفسى والتحليل النفسى، ألا ينتظروا من هذه الدراسة **تشخيصا**، أو ترجمة سلوك إلى **أعراض**، أو اختزال النمو إلى **عقد شائعة**، أو أيًا مما شاع عند من يتبع أو يتصور انه يتبع ما يسمى **النقد الأدبي النفسى** (يكن الرجوع إلى أطروحتى عن العلوم النفسية والنقد الأدبي مباشرة أو في كتاب تبادل الأقنعة )





تلك الشعلة الصغيرة الحية داخل، من حين لآخر، إلى ذلك الجانب الأسود من السحر.

وبعد أن تجاوزت السبعين من العمر، ومباشرة بعد أن اختارتني جامعتان لمنحى الدكتوراه الفخرية، قدمت للمحاكمة بتهمة غواية طفلة صغيرة باستخدام السحر. في السجن، رجوتهم أن يسمحوا لي بقضاء وقتي في الرسم، ووافقوا على ذلك، وأحضر لي الأصدقاء عدة الرسم والألوان، ورسمت منظرًا طبيعيًا على حائط الزنزانة، وهكذا عدت ثانية إلى الفن، ومع كل ما عانيته وتحطم كثير من الآمال، إلا أن ذلك لم يمنعني من استحلاب المتعة مرة أخرى من كؤوس الفن النبيلة، ومن إقامة عالم صغير جميل **كالطفل الذي يلعب**، ومن التمتع من كل قلبي بهذا العالم والتخلي عن كل الحكمة والمجردات الإنسانية والعودة إلى شهوة الخلق البدائية.

.....

... وكنت سأختنق وأصبح هباء في جهنم الأوراق هذه لولا رسوماتي التي أنعشتني وأراحتني، وتلك اللوحة المنظر الجميل الصغير الذي جدد لي الهواء والحياة. كنت أفق يوماً أمام لوحتي حين جاء الخراس مهرولين بطلب الاستدعاء الممل، وحاولوا انتزاعي من استمتاعي، شعرت في تلك اللحظة بالإرهاق والنفور من هذا الاستعجال، ومن هذا الواقع الخالي من الروح، واستغرقت وقتاً طويلاً لأضع حداً لخرن، ولو لم يسمح لي بأن أعب لعبة الفنان الريئة دون إزعاج، لاستنجدت بتلك الفنون الأشد صرامة والتي كرس لها سنوات كثيرة من حياتي، فبدون سحر سيصبح العالم مكاناً لا يطاق.

استدعيت إلى ذهني التركيبة الصينية، ووقفت لدقيقة أكتب نفسي، وحررت نفسي من وهم الواقع، ثم رجوت الخراس بدمائة، أن يصبروا لحظات، لأنني أريد أن أعود إلى المشهد الذي رسمته لأجث عن شئ في القطار، ضحكوا بطريقتهم المعتادة، فقد اعتبروني مجنوناً.

ثم بدأت أصفر وأصفر، وخطوت إلى الصورة، وصعدت إلى القطار الصغير الذي سار حتى النفق المظلم، ولبرهة ظل الدخان الأسود الذي يخرج من النفق مرثياً، يخرج مندفعاً من الثقب الدائري، ثم اختفى الدخان، واختفت الصورة وأنا معها

وظل الخراس واقفين تغمرهم حيرة كبيرة".

ما هذا؟

أين الخط الفاصل بين الواقع والخيال؟

حين انتقل هسهه فجأة وهو يحكى بعض سيرته الذاتية من ذكر التهمة إلى التواجد في السجن بهذه السلاسة، دون أي تعقيب أو نفى للتهمة، ولا هو ذكر أية تفاصيل أخرى إلا خبرته في السجن، لم أستطع أن اقبل أيًا من ذلك بنفس البساطة، وحين بحثت عن هذه الواقعة التي حسبت تاريخها فوجدتها بعد نوبل مباشرة تقريباً (... بعد أن تجاوز

السبعين) ولم أجد عنها في المصادر المتاحة أية تفاصيل أخرى، لم أرتح لقبولها هكذا كما هي، حتى أنني فضلت في هذه المرحلة من الدراسة أن أضعها بين قوسين، وخاصة أن موقف الحكى (سيرة ذاتية!!) انتهى بهذه النهاية التي جسدت له لوحته على الخائط حتى اختفت اللوحة واختفى هسه معها وظل الحراس واقفين تغمرهم حيرة كبيرة.

إن لم يكن الأمر كله خيالاً محضاً فكيف نتصور هذا المبدع الجميل الرائع يغوى طفلة بسحر أسود، ويحكم، ويدان، وهو حائز على نوبل، وهو في السبعين من عمره، وكل ما يحكيه حول هذا الحادث وما أحاط به من محاكمات هو سخف الإجراءات وغباء المكتبيين، ثم هذا الخيال الجامع الذي يحجو الواقع بكل هذا اليقين.

هو يسترسل وهو يصف كيف تواصل خياله مع الصورة التي رسمها على الخائط، والتي تجسدت له حتى صعد وركب القطار واختفى هو والصورة عبر الخائط؟

كان من الممكن أن أؤجل طرح هذه التساؤلات حتى أتحقق من مصداقية الحدث، بما في ذلك الرجوع إلى الثقة المختصين في تاريخ مثل هؤلاء المبدعين، إلى أنني فضلت أن أستغل هذه الطريقة المسلسلانية في النشر الإلكتروني هكذا، لأشرك الزوار والقراء معى في بحث هذه المسألة، فأطلب ممن يهمه الأمر أن يفيدين بأى تفاصيل تتعلق بهذا الغواية لتلك الطفلة، ثم هذه المحاكمة اللاحقة.

ما استفدته من هذه الحيرة المؤقتة، هو أن هذا المبدع فرض على موقفه من الخيال الواقع، والواقع الزائف، حتى أوصلنى إلى هذه الاحتمالات العجيبة.

هذه مجرد عينة من تحديات النقد المطروح.